الحلقة 9

من معاوية إلى السلطان محمد الفاتح العثمانى

إعداد:
هشام المنشاوي

فتح القسطنطنية.. بشارة نبوية

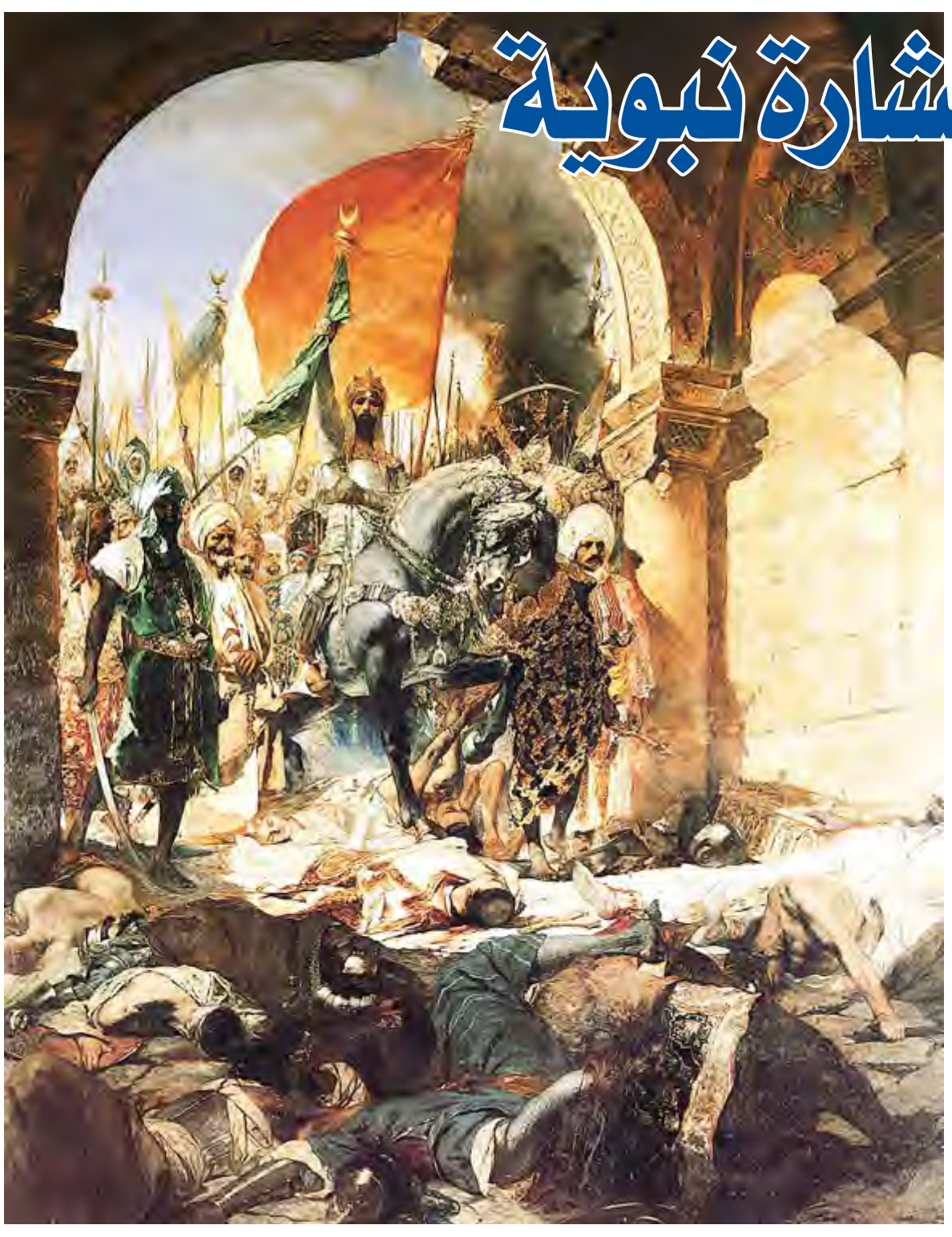

فَتحُ القُسطَنطينيّة أو سُقُوطُ القُسطَنطينيّة أو غزوُ القُسطنطينيّة (باليونانيّةَ: ؛ وبالتُركيّة المُعاصرةَ: ؛ وبالتُركيّة العُثمانيّة: استانبول فتحى أو قسطنطينيه فتحى)، هو الاسمُ الذي يُطلق على أحد أبرز الأحداث في التاريخ، وهو سُقوط مدينة القسطنطينيّة عاصمة الإمبراطوريّة البيزنطيّة (أو الرومانيّة الشرقيّة، أو الروم) في يد المُسلمين مُمثلين بالدولة العُثمانيّة، بعد حصار دام عدّة أسابيع، قاده السُلطان الشّاب ذو الأحد وعشرين (21) ربيعًا، مُحمّد الثاني بن مُراد العُثماني، ضدّ حلف مُكوّن من البيزنطيين والبنادقة والجنوَيين بقيادة قيصر الروم الإمبراطور قسطنطين پاليولوگ الحادي عشر. دام الحصار من يوم الجُمعة 26 ربيع الأوّل حتّى يوم الثُلاثاء 21 جمادى الأولى سنة 857هـ وفق التقويم الهجري، المُوافق فيه 5 نيسان (أبريل) حتّى 29 أيّار (مايو) سنة 1453م وفق التقويم اليولياني، حينما انهارت دفاعات الروم ووقعت المدينة لُقمةً سائغة بيد العُثمانيين.

شكّل فتح القسطنطينيّة خاتمة المُحاولات الإسلاميّة لضم هذه المدينة لحظيرة الخلافة، والتي بدأت مُنذ أوائل العهد الأُمويّ خلال خلافة مُعاوية بن أبي سُفيان واستمرّت خلال العهد العبّاسي، إلى أن تكللت بالنجاح في العهد العُثماني. كما شكّل هذا الحدث (إضافةً إلى فتح منطقتين روميّتين أُخريين لاحقًا) نهاية الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وإلى حد أبعد الإمبراطوريّة الرومانيّة التي استمرّت موجودةً بهيئة روميّة شرقيّة، بعد أن صمدت طيلة 1,500 سنة تقريبًا. كذلك شكّل الفتح العُثماني للقسطنطينيّة ضربةً موجعةً للعالم المسيحي والبابويّة الكاثوليكيّة رُغم الاختلاف والخلاف المذهبي والعقائدي بين الكنيسَتين الشرقيّة الأرثوذكسيّة والغربيّة الكاثوليكيّة، ذلك أنّ المدينة كانت تُشكّلُ عائقًا وحاجزًا أمام التوغل الإسلامَي في أوروپّا، ولمّا سقطت أصبح بإمكان العُثمانيين المضي قُدمًا في فتوحاتهم دون التخوّف من ضربةٍ خلفيّة تُثنيهم عن أهدافهم.

بعد تمام الفتح، نقل السُلطان مُحمّد الثاني عاصمة مُلكه من مدينة أدرنة إلى القسطنطينيّة، وسُمّيت «إسلامبول» أي «تخت الإسلام»، ولُقّب السُلطان بالفاتح أو «أبو الفتح». غادرَ عددٌ كبيرٌ من عُلماء وفلاسفة المدينة، من روم وغيرهم، إلى الدويلات والإمارات والممالك الأوروپيّة المُجاورة، قبل ضرب الحصار على عاصمتهم وبعد أن فُكّ عنها، وأغلب هؤلاء حطّت به الرحال في إيطاليا حيثُ لعبوا دورًا في إحياء العلوم والمعارف المُختلفة هُناك، مما جعل تلك البِلاد رائدة عصر النهضة الأوروپيّة.

كان فتحُ القسطنطينيّة حدثًا مُهمًّا على الصعيدين الإسلامي والعالمي، فعلى الصعيد الإسلامي تحققت نبوءة الرسول مُحمّد التي يؤمن المُسلمون أنّه بشّر بها مُنذ زمن بعيد، وكان ذلك بمثابة تتويجٍ لسلسلة مّن الانتصارات الإسلاميّة ودافعًا ومُحركًا قويًا للجهاد ضد الممالك الأوروپيّة، وعلى الصعيد العالمي اعتبره العديد من المؤرخين خاتمة العصور الوسطى وفاتحة العصور الحديثة.

النبوءة الإسلامية

نبوءة النبي محمد حول فتح القسطنطينية، منقوشة على إحدى بوابات آيا صوفيا ، وشكّل فتحُ القسطنطينيّة هاجسًا عند الكثير من الخُلفاء والقادة المُسلمين مُنذ أوائل العهد الأُموي، فقد طمع الكثير منهم أن يكون صاحب بشارة الرسول مُحمّد القائلة بفتح هذهَ المدينة وضمّها إلى بلادُ المُسلمين، فقد ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل ما يؤكّد هذا الكلام بالنسبة للمُسلمين، حيثُ قيل: «حَدّثَنَا عَبْدُ اللّه بْنُ مُحَمّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَسَمِعْتُهُ أَنَا مِنْ عَبْدِ اللّه بْنِ مُحَمّد بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ حَدّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، قَالَ حَدّثَني الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة الْمَعَافرِيُّ، قَالَ حَدّثَنَي عَبْدُ اللّه بْنُ بَشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ، عَنْ أَبِيه، أَنّهُ سَمِعَ النّبِيّ يَقُولُ: لَتُفْتَحَنّ الْقُسْطَنْطِينِيّةُ فَلَنَعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ». وفي رواية أُخرى نقلًا عن عَن المُحدّث أبو قبيل حيٍ بن هانئ بن ناصر أنّهُ قال: «كُنّا عِنْدَ عَبْدِ اللّه بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، وَسُئِلَ: اَيّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ اَوّلًا: الْقُسْطَنْطِينِيّةُ اَوْ رُومِيّةُ؟ فَدَعَا عَبْدُ اللّه بِصُنْدُوقٍ لَهُ حِلَقٌ ؛قَالَ: فَاَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا. قَالَ فَقَالَ عَبْدُ اللّه بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللّه نَكْتُبُ اذْ سُئِلَ رَسُولُ اللّه اَيّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ اَوّلًا قُسْطَنْطِينِيّةُ اَوْ رُومِيّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّه مَدِينَةُ هَرَقْلَ تُفْتَحُ اَوّلًا يَعْني قُسْطَنْطِينِيّةَ». وقد حاول المُسلمون طيلة ثمانية قرون تحقيق هذه النبوءة ففشلوا في كُلّ مرّة نظرًا لموقع المدينة الحصين وأسوارها السميكة وبسالة المُدافعين عنها. وقد بلغ عددُ المرّات التي حوصرت فيها المدينة من قبل المُسلمين 11 مرّة قبل هذه الأخيرة.

مُحاولات المُسلمين لِفتح المدينة

أولى المُحاولات الإسلاميّة لفتح القسطنطينيّة كانت سنة 49هـ المُوافقة لسَنة 669م، وذلك في عهد مُعاوية بن أبي سُفيان، إذ أرسل حملةً عسكريّةً بريّةً ضخمة لحصار المدينة بقيادة فضالة بن عُبيد الله الأنصاري الذي توغّل في عُمق الأراضي البيزنطيّة حتّى وصل إلى خلقدونيّة القريبة من العاصمة الروميّة. وقد أمضى فضالة شتاء تلك السنة في أملاك الإمبراطوريّة وكان مُعاوية يمُدّه بالإمدادات والمؤن. وقد قامت هذه الإمدادات، بقيادة سُفيان بن عوف، بتنفيذ الحصار على العاصمة البيزنطيّة. ونظرًا لجسامة المُهمّة وأهميّة الحملة، أردف مُعاوية القوّات الإسلاميّة بابنه يزيد على رأس قوّة إضافيّة، مما أنعش آمال المُسلمين بمواصلة الحصار. واصطدم الفريقان الإسلامي والرومي في معارك التحاميّة تحت أسوار المدينة، إلّا أنّ المُسلمين لم يُحرزوا انتصارات حاسمة، فاضطرّوا إلى فك الحصار والعودة إلىً دمشق. وتوفي في هذه الغزوة الصحابي أبو أيّوب الأنصاريّ الذي رافق جيش يزيد، ودُفن عند أسوار القسطنطينيّة.

وفي سنة 54هـ المُوافقة لسنة 674م بدأ الحصار الثاني للقسطنطينيّة واستدعى الأمر تعزيز القوّة البحريّة الإسلاميّة في مياهها، وانضمّ إليها أسطولٌ إسلاميٌ آخر بقيادة جُنادة بن أبي أُميّة الأزدي بعد أن فتح جزيرة أرواد القريبة منها حيث اتخذها المُسلمون قاعدة انطلاق. وتخلل الحِصار مُناوشاتٌ بين الأسطولين الإسلامي والبيزنطي، في حين تراشقت القوّاتُ البريّةُ الإسلاميّةُ المُرابطة حول العاصمة، مع الجُنود الروم المُرابطين على أسوارها، بالقذائف والسّهام. استمرّ هذا الوضع قائمًا طيلة سبع سنوات حتّى سنة 60هـ المُوافقة لسنة 680م اقتصرت خلالها العمليّات العسكريّة على فترتيّ الربيع والصيف لصُعوبة القتال في الشتاء. وصمدت المدينة أمام الحصار، فلم يُحرز المُسلمون انتصارات حاسمة بفعل أنّ جُهودهم تركّزت على مُحاصرة المدينة منً جهة البحر. أمّا الحصار البرّي فكان مُزعزعًا حيثُ بقيت الطُرق البريّة وطريق البحر الأسود مفتوحة أمام البيزنطيين مما جعل منها مُتنفسًا وطريقًا للإمدادات والمؤن. أمام هذا الواقع، أمر الخليفة مُعاوية بن أبي سُفيان الجيش الضخم أن يعود أدراجه إلى دمشق، وأبرم هدنةً طويلةً مع الروم تستمرُ ثلاثين سنة.

عاود المُسلمون الكرّة على القسطنطينيّة في خلافة سُليمان بن عبد الملك، سنة 98هـ المُوافقة لَسنة 717م، عندما جمع الخليفة سالف الذكر جيشًا بريًا بلغ قوامه 180 ألف جُندي من أَهل الشّام والجزيرة الفُراتيّة والموصل، بالإضافة إلى 1800 قطعة بحريّة، واتّخذ من دابق مُعسكرًا له، وأعطى الله عهدًا أن لا ينصرف حتّى يدخل الجيش القسطنطينيّة. ومن هذا المكان قام الخليفة بتعبئة الجيش وحرّكه باتجاه العاصمة البيزنطيّة بقيادة أخيه مسلمة، فوصلها بعد أن فتح بضعة ثغور على طول الطريق وألقى أفراده أنفسهم عند أسوار القسطنطينيّة وحاصروها من جهة البرّ. وتحرّك في الوقت نفسه الأسطول الإسلامي الضخم باتجاه مضيق الدردنيل وبحر مرمرة وحاصر المدينة من جهة البحر.

خمدت المُحاولات الإسلاميّة لفتح القسطنطينيّة بضعة قرون مُنذ أن تقسّمت الدولة العبّاسيّة وأخذ السلاطيّن والأُمراء المُسلمين ينزوون في البلاد التي استقلّوا بها، ونتيجةً للنكبات التي تعرّض لها المشرق الإسلامي جرّاء الحملات الصليبيّة والغزو المغولي، ولم تنتعش تلك المُحاولات مُجددًا سوى في بداية العهد العُثماني. ففي سنة 793هـ المُوافقة لسنة 1391م، ضرب السُلطان بايزيد الأوّل حصارًا على القسطنطينيّة وأجبر الإمبراطور عمانوئيل پاليولوگ الثاني على قُبول شُروط الصُلح، ليتفرّغ لقتال الحلف الأوروپيّ الصليبيّ في البلقان، وبعد أن تمّ له النصر على هذا الحلف وأمّن الجبهة البلقانيّة وسيطر على قسمَ من شبه جزيرة المورة، التفت بايزيد مُجددًا نَحو القسطنطينيّة بعد أن امتنع الإمبراطور البيزنطي عن الوفاء بالتزاماته تجاه الدولة العُثمانيّة، فقام بعزل العاصمة عن مُحيطها، وأحكم الحصار عليها بأن بنى على شاطئ الأناضول قلعة «أناضولي حصار» على مسافة ثمانية كيلومترات منها على ساحل مضيق البوسفور. وكاد العُثمانيّون يُفلحون بالدخول إلى العاصمة لولا الاجتياح المغولي للمنطقة بقيادة تيمورلنك، فاضطرّ بايزيد إلى فكّ الحصار عن القسطنطينيّة والسير لمُلاقاة المغولَ في سهول أنقرة، بعد أن جدّد شروط المُعاهدة السابقة مع الروم وأضاف إليها شروطًا أُخرى.

الروم يحشدون الحُلفاء وتوحيد الكنيستين الشرقيّة والغربيّة

كان الإمبراطور البيزنطي واقعيًا حين أقنعته المحنة أنّ الأُخوّة المسيحيّة والتعاون الأرثوذكسي – الكاثوليكي هو أحد الوسائل الأساسيّة لإنقاذ العاصمة من خاتمة مُروّعة، وأدرك أنّ الأسوار السميكة والسلسلة الحديديّة الغليظة الطويلَة، التي أغلقت مدخل القرن الذهبي، وعزيمة الرجال وحملة إنقاذ من أوروپّا الغربيّة؛ هي التي يُمكن أن تدفع المُسلمين بعيدًا عن أسوار القسطنطينيّة، لذلك طلب النجدة من أوروپّا على وجه السُرعة، لكنّ الرد الأوروپيّ جاء مُتفاوتًا وفقًا لمصلحة كُلّ دولة. فلبّى أهالي جنوة طلبه، وأرسلوا أُسطولًا بحريًا تحت أمرة يوحنّا جوستنياني للمُساعدة في الدفاع عن المدينة، كما قدّم الجنويّون المُقيمين في مُستعمرة غلطة المُجاورة، أربعة آلاف مُقاتل، لم يكن هدفهم الحقيقي مُساعدة الروم بقدر ما استهدفوا سبق البنادقة، في حال النصر. وكان في المدينة حوالي ألف وستّمائة من البنادقة وغربيّون آخرون يعيشون فيها، وقد عدّوا هذه الحَرب على أنّها حربهم. وأبدى البابا نقولا الخامس استعداده للمُساعدة، شرط أن تتحد الكنيستان الشرقيّة والغربيّة. وافق قسطنطين على هذا الشرط، على الرغم من عمق جُذور العداوة التاريخيّة بين الأرثوذكس والكاثوليك، ورُغم أنّهُ كان هو نفسه حاميًا للمذهب الأرثوذكسي وحاميًا للبطريرك المسكوني، ومن ثُمّ فإنّه من غير المُمكن أن يتبع بابا روما من الناحية المذهبيّة. لكن رُغم ذلك، حاول الإمبراطور إظهار إيجابيّته للبابا، فقبل أن يُرسل الأخير مندوبًا عنه إلى القسطنطينيّة ليُتمّ إجراءات الاتحاد، وبالفعل أرسل البابا الكاردينال إيزيدور إلى عاصمة الروم الشرقيّة حيثُ ترأّس قدّاسًا احتفاليًا في كاتدرائيّة آيا صوفيا وفقًا للأصول الكاثوليكيّة يوم 20 ذي الحجّة سنة 855هـ المُوافق فيه 12 كانون الثاني (يناير) سنة 1452م، دعا فيه للبابا وأعلن توحيد الكنيستين. ويبدو أنّ الشعب البيزنطي اشمأزّ مما حصل، إذ قال رئيس الوزراء البيزنطي الأرشيدوق نوتاراس جُملته التاريخيّة، مُعبرًا عن هذا الشعور: «إنّني أُفضلُ أن أُشاهدَ في ديار البيزنط عَمائمَ التُرك على أن أُشاهدَ القُبّعةَ اللّاتينيّة». وهكذا حالَ تعصُّبُ الشعبِ دون تقديم المُساعدة البابويّة. أمّا الدُول الأوروپيّة الأُخرى فلم تُحرِك ساكنًا لمُساعدة الروم.

السُلطان مُحمّد الفاتح والبطريرك المسكوني جرجس

كانت مسؤوليّات العاصمة كبيرة، ولا يُمكنُ أن يقوم بها شعبٌ قليل العدد بقي فيها بعد سُقوطها بأيدي المُسلمين، وكان كثيرٌ من الجماعات الإسلاميّة تُدركُ قيمة موقعها التجاري للانتقال إليها والاستفادة من ذلك، بالإضافة إلى الفُرص العديدة التي تسنح من وجودها بالقرب من الحكومة المركزيّة. لذلك استمرّت الهجرات الإسلاميّة إلى المدينة حتّى أضحت عاصمة إسلاميّة تمامًا، وعلى الرُغم من ذلك لم يُهمل الفاتح أمر سُكّانها الأصليين، فشجّع من هاجر منهم على العودة والاستمرار في مُزاولة نشاطاتهم، وبذلك زوّد دولته بقاعدة سياسيّة وثقافيّة قويّة.

عمل السُلطان الفاتح على تشجيع بقاء الجالية الجنويّة، التي كان لها دورٌ كبير في تنمية التجارة، فأبقى ما كان للجنويين من امتيازات وزاد عليها، فكانوا بذلك أداة لنموّ ثروة المدينة من جهة، وواسطة الاتصال بالدُولَ الأوروپيّة من جهةٍ أُخرى.

نهج السُلطان سياسة التسامح الديني(6) حتّى يتسنّى له الاستفادة من العناصر المسيحيّة التي أضحت تُكّون رعيّة السُلطان المسؤولة عن استثمار البلاد، ولهذا أبقى المسؤوليّات الدينية للأرثوذكس في يد الكنيسة، وعلى رأسها بطريرك الروم. وكان السُلطان قد عزل البطريرك المسكوني، وطلب من المجلس الروحاني أن يجتمع لانتخاب بطريرك جديد بدلًا من السّابق نظرًا لتأييده البابا في الاتحاد الكنسيّ، فانتخبوا جرجس (جورجيوس) سكولاريوس، واعتمد السُلطان هذا الانتخاب واحتفل بتثبيت البطريرك الجديد بنفس الأُبّهة والنظام الذي كان يُعمل للبطاركة في أيّام القياصرة الروم، وأعطاهُ حرسًا من عساكر الإنكشاريّة ومنحهُ حقّ الحُكم في القضايا المدنيّة والجنائيّة بكافّة أنواعها المُختصّة بالروم، وعيّن معه في ذلك مجلسًا مُشكّلًا من أكبر موظفي الكنيسة. ولم يكتف السُلطان بالسماح لبطريركيّة الروم بمُمارسة أنشطتها فحسب، بل سمح للطائفة اليهودية بامتلاك الكُنس(7)..

الفتح الإسلامي

مكث السُلطان في القسطنطينيّة حوالي 23 يومًا بعد فتحها نظّم فيها شؤونها ورتّب أمورها، وكانت فاتحة قراراته أن اتخذها عاصمةً لدولته، بل العاصمة الإسلاميّة الكُبرى، فاستبدل اسمها باسم «إسلامبول»، وهي كلمةٌ تُركيّةٌ معناها «تخت الإسلام» أو «دار الإسلام». اتخذ السُلطان بعد تمام فتح المدينة لقب «الفاتح» أو «أبو الفتح»، فأصبح يُعرف في التاريخ باسم «مُحمّد الفاتح»، ويُكتب بالتُركيّة العُثمانيّة: «فاتح سُلطان مُحمّد خان ثانى» وبالتُركيّة المُعاصرة: «Fâtih Sultan Mehmed Han II». بعد ذلك أُرسلت المراسيل إلى السلاطين والأُمراء المُسلمين لإعلامهم بفتح المدينة الحصينة، وفي مُقدّمة هؤلاء الخليفة العبّاسي المُقيم بالقاهرة، أبو البقاء حمزة بن المُتوكّل القائم بأمر الله، وسُلطان مصر والشّام المملوكي، الملك الأشرف سيف الدين إينال العلائي، وجاء في تلك الرسالة: إنّ من أحسن سُنن أسلافنا – أنّهُم مُجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. ونحنُ على تلك السُنّة قائمون، وعلى تلك الأمُنية دائمون، مُمتثلين بقوله تبارك وتعالى: ﴿قَاتِلُواْ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّه﴾ ومُستمسكَين بقوله عليه السّلامَ: «مَنْ اغْبَرّتْ قَدَمَاهُ في سَبِيل اللّه حَرّمَهُ اللّهُ عَلَى النّار». فهممنَا هذا العام... مُعتصمينَ بحبل ذي الجلال والإكرام ومُستمسكين بفضل الملك العلّام، إلى أداء فرض العزاء في الإسلام مؤتمرين بأمره عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الّذِينَ يَلُونَكُم مّنَ الْكُفّار﴾. وَجهّزنَا عساكر الغُزَاة والمُجاهدين من البرّ والبحر، لفتح مدينة مُلئت فُجورًا وكُفرًا. والتي بقيت وسط الممالك الإسلاميّة تُباهي بكُفرها فخرًا"